الإيحاء الصوتي الدلالي في اللغة العربية.

semantic Phono-Suggestion in the Arabic language

د/ خليل بالقط1.*

1المدرسة العليا للأساتذة مسعود زغار سطيف، (الجزائر)، khelil8739@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2025/04/01 **تاريخ المراجعة**: 2025/05/19 **تاريخ النشر**: 2025/07/01

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إثبات علاقة جمالية قائمة على المجانسة بين الأصوات العربية وما تحمله من إيحاءات دلالية، سواء في بروز الصوت في اللفظة الواحدة، أو في تجاور الأصوات في كلمة، أو في تجاورها وتتابعها في سياق جملة أو مقطع نصي، فالحس الذوقي عند المتلقي بإمكانه أن يستشف بعض الإيحاءات الدلالية التي تبثها الأصوات العربية بمخارجها وصفاتها وحركاتها وطرائق بنائها، وهذه خاصية تنفرد بها اللغة العربية عما سواها من اللغات الأخرى.

الكلمات المفتاحية: الإيحاء، الدلالة، الصوت، المخارج، الصفات، المطابقة.

***Abstract**:*

This study aims to establish an aesthetic relationship based on phonetic homogeneity between Arabic sounds and the semantic connotations they convey, whether through the prominence of a sound within a single word, the juxtaposition of sounds within a word, or their succession within the context of a sentence or a textual segment. The recipient's aesthetic sensibility enables them to perceive certain semantic connotations transmitted by Arabic sounds through their articulation points, phonetic characteristics, diacritics, and structural patterns. This distinctive feature sets the Arabic language apart from other languages.

***Key words**: suggestion, denotation, sound, articulation points, characteristics, correspondence.*

* المؤلف المراسل. د/ خليل بالقط

تقديم:

إنّ للأصوات العربية حسّاً رهيفاً تقذفه في ذهن السامع، وهذا الحس يكاد يكون مفقودا في غيرها من اللغات الأجنبية، بخلاف لغتنا العربية الخالدة، وقد تفطّن لهذا الجانب التذوقي كثير من الدراسين، فاغترف منه علماء اللغة والأسلوب والبلاغة، وأبرز من غاص فيه من القدماء هو العالم اللغوي الشهير ابن جني في كتابيه: الخصائص وسر صناعة الإعراب، واستطاع بفطنته الفذّة وحسّه الثاقب أن يغور في أعماق الأصوات العربية ويتحسّسَ من إيحاءاتها، فأفْردَ فصْلاً في كتابه الخصائص سمَّاه بـ: (إمْساس الحروف أشباه المعاني)، واستطاع أن يضرب من الأمثلة ما يعضد به حجته، يقول - وهو مُصِرٌّ على وجود علاقة بين الصوت والدلالة ما نصّه -: " فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونَهْج مُتْلَئِبٌّ عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمْتِ الأحداث المعبّر بها عنها، فيعدّلونها بها ويحتذُونها عليها. وذلك أكثر ممّا نقدّره، وأضعاف ما نستشعِره ... "[1]، والمقصود من كلام ابن جني هو أن يحمل الصوت بعض الدلالات والصفات الموجودة في المعنى أو يقاربها.

وفي طرْق هذا الباب باب إثبات علاقة بين الصوت والدلالة برزَ مؤيدون ومعارضون لهذه الفكرة الفلسفية، فمن القدماء المؤيدين نجد أمثال ابن فارس والثعالبي وغيرهم، ومن المؤيدين المحدثين نجد أمثال فارس الشدياق وصبحي الصالح ومحمد المبارك وعباس العقاد وغيرهم، أما المعارضون من المحدثين فمنهم عبده الراجحي وتمام حسان ومحمود فهمي حجازي وغيرهم[2]، وربما الذين أنكروا العلاقة بين الدال والمدلول في العربية قد تأثروا باللساني (دي سوسير) الذي جاهرَ بإنكار العلاقة بين الدال والمدلول، فأسقطوا أحكام اللغة الأجنبية على اللغة العربية واستدلّوا بها، وفي الحقيقة هناك اختلاف جذري بين خصائص اللغة العربية واللغة الأجنبية، والقياس في اعتباطية العلاقة بين الدال بالمدلول في اللغة الأجنبية فاسد إذا قيس باللغة العربية.

تمهيد:

إنّ الأصوات العربية تكتسب دلالاتها من خلال السياق وليس بمعزل عن النص؛ ذلك أنه في انعزالها عن النص تعتبر رموزا لغوية جامدة، وبهذا امتنع أن تُعْطَى الأصواتُ دلالاتٍ مسبّقة خالية من توالبها في نسيج صوتي لغوي، وتبرز دلالة الصوت أكثر عند تكراره في مقاطع معينة، فتكراره يحدث " إيقاعا معينا يرسم به الشاعر صورة أو يساعد به في تكوينها حيث يكون هذا التكرار في تتابع صوتي في البيت الواحد أو عبر الكلمات المتتالية في الأبيات أو في البيت. "[3]، فالشاعر والمتكلم عموما يستعين بأصوات اللغة ليرسم بها إيحاء دلاليا معينا، سواء أكان مقصودا أم غير مقصود، فالحروف العربية تتميز بسعة مخارجها وكثرة صفاتها، فهي اللغة المعجزة بمخارجها وصفاتها وتراكيبها ونظمها، ولهذا " فالأصوات ليست عشوائية ولا اعتباطية، ولكن مخارجها تتكون عبر منظومة صوتية تندرج في نظام اللغة العام الذي الغاية منه تشكيل الدلالة في الأذهان. "[4].

إذن لا بدّ أن نقرّ بأنّ هناك علاقةً محسوسةً فيها إيحاء ومحاكاة بين الأصوات ودلالاتها، وأقصد بالمحاكاة الصوتية أمرين: إما محاكاة ومطابقة مباشرة بين اللفظ والمعنى، مثل أصوات الطبيعة والحيوانات كحمحمة الحصان وزقزقة العصافير وغيرها، أو أن تكون هناك مناسبة ومجانسة بين الدال والمدلول؛ كاختيار الحروف المفخمة لخشونة المعنى والمرقّقة لرقّته، وفي هذه الحالة تكون المطابقة بين الصوت والمعنى واضحة، وخاصة في

الأداء الشعري الذي يعبر عن مكنون الأحاسيس والمشاعر الفياضة، وذلك "أن تتوافر في ألفاظه صفة التجانس بين اللفظ والمعنى، وذلك بأن يكون اللفظ رقيقاً في موضع الرِّقَّة، قويّاً عنيفاً في موضع القوّة والعنف، وأن تتوفَّرَ فيه صفة الجرس الموسيقي"[5]، وكل هذا يجب أن يكون ضمن منظومة صوتية تستشعر السامع بإيحاء الدلالات المبعوثة من طرف المرسل.

أولا: محاكاة الأصوات المفردة:

لو تحسسنا من الأصوات العربية باعتبار ترتيبها المخرجي أو صفاتها الثابتة فيها أو العارضة عليها لوجدنا أكثرها تحمل دلالات بالتطابق المباشر بين الصوت والمعنى، وهي خاصية جمالية تنفرد بها اللغة العربية عما سواها، ففي أصواتها قدرة فريدة على تصوير الشعور الجائش في أعماق المتكلم، فهي لغة شاعرة كما يسميها العقاد؛ لأنّها " لغة بُنِيتْ على نسق الشعر في أصوله الفنّيّة والموسيقية "[6]، ويمكننا أن نسرد أمثلة على إيحاء بعض الأصوات بالمطابقة المباشرة بين الدال والمدلول:

1: دلالات حروف الحلق:

الحلق هو مخرج لستة حروف، وهي: (أ، هـ، ع، ح، غ، خ)،[7] فحرف الغين مثلا يحمل في طياته دلالات مباشرة في كثير من الكلمات، فمخرج الغين الحلقي هو المكان نفسه الذي يشعر الغريق فيه بالغرق، فعندما تتأمل قوله تعالى: (فأغْرقناهم) تجد تصويرا مباشرا بين الغين الساكنة بموقعها الحلقي وصوت غرغرة الغريق؛ فهي محاكاة مباشرة بين الصوت والمعنى، والغين أول مخرج يختفي من اللسان إلى الحلق، فهو الأنسب لتصوير معاني الخفاء والغياب، والألفاظ التي تستعين بالغين لتحمل معاني الغياب شواهدها كثيرة، مثل: الغرق، الغطس، الغرس، الغياب، الغيب، الغلق، الغلاف، الغطاء، الغمد، الغور، الغيهب، الغبش، الغروب، الغفلة ... إلخ، والشواهد على ذلك كثيرة. ومن شواهد تموقع مخرج الصوت مع ما يناسبه من معنى حرف الخاء، والخاء تخرج من أدنى الحلق مع الغين،[8] والخاء الساكنة فيها محاكاة مباشرة وواضحة للصوت الذي يصدره المخنوق، فموضع الخنق هو الحلق، وهذه العملية عملية الخنق هي التي تستنطق الخاء لتوضح المعنى محاكاة تامة، تأمّلْ عبارة (مخْنوق) تجد صوت الخاء الساكنة يصور هذا المعنى أدق تصوير، والانخناق هو انحصار الحلق، وصوت الشخير كذلك يحتاج إلى الخاء ليؤدي المعنى؛ إذن اختيار صوت الخاء لمثل هذه المعاني ليس اعتباطيا.

أما مخرج العين فهو أول مخرج عند الخليل، وعند غيره هو صوت يخرج من وسط الحلق، والعين صوت مجهور له صيحة قويةٌ ولعلعةٌ بارزة، فإذا أردْتَ أن تُخيفَ شخصاً بغتةً في غفلته أو صبيّاً نَطَقْتَ له حرفَ عيْنٍ ساكنا بصوت مرتفع (أعْ)، وذلك لما في طبيعة هذا الصوت المجهور وما يسبِّبُه من لحظة انفعال مُرعِبة، ومنه نرى أن أغلب ألفاظ الخوف والرعب تحتوي على صوت العين المرعب، تأمّلْ هذه الألفاظ: الرّعْب، الذّعْر، الفزعْ، الهلعْ، الرّوعْ، الفجعْ، الجزعْ ... إلخ، أو ما يُسَبِّبُ الرّعْب مثل: النعْي، الردع، الوجع، لعْلع، وحتى في لهجاتنا الجزائرية نعبر عن الرعب بـ (الخلع والخلعة)، وشاهد تصوير الرعب بصوت العين في القرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[9]، فقد صورت العينُ الساكنةُ حالة الرعب في قلوب المنافقين. في حين نجد العكس في صوت الحاء الساكنة بالرغم من توحّد مخرجها مع صوت العين، فهي بهمسها وهدوئها فيها استجابة لراحة النفس والبدن وبداية الفرج، ولهذا نجد أكثر معاني الراحة تحتوي على صوت الحاء، مثل: الارتياحْ، الانشراحْ، الانفتاح، الفرحْ، المرحْ، الحبور، الرحابة، الحفاوة، الفسحة ... إلخ؛ لأنه صوت مهموس يخرج

معه الهواء بعد انحباسه وانقباضه جرّاء الضغط والضيق، كذلك من شأن الحاء أن تصور معاني الاحتراق؛ فكلمة (أحْ) استجابة فطرية تدل على الاحتراق، ولهذا جاءت أغلب مرادفات الاحتراق حاملة صوت الحاء، مثل: الاحتراق، الحرقة، اللفح، الحرارة، الحميم، الجحيم، الحر، حماوة، احتدام ... إلخ، تأمّلْ قولَه تعالى وتمعّن كيف صوَّر صوتُ الحاء المتكرر حرْقَ وجوه الكافرين في النار ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[10].

ويأتي صوت الهمزة بشدته وانحباسه وانغلاقه يحمل في طياته معاني الشدة والبؤس، والعرب قديما يجنحون إلى تخفيفه بطرق شتى؛ كالحذف، والتسهيل، والإبدال، والإدخال، فهو حرف يخرج من أقصى الحلق مع حرف الهاء والألف،[11] والهمزة بجعودتها وصعوبتها تصور معاني الشدة، تأمّل هذه الكلمات: البأس، البأساء، البؤس، الألم ... إلخ، انظر في قوله تعالى كيف صورت الهمزات الثلاث السواكن معنى الشدة والألم في الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾[12]، في حين نجد صوت الهاء يبعث دلالات الضعف والفتور، فهو صوت مهتوت كما يقول ابن جني،[13] ولفظتا (الآه والتنهّد) خير شاهد على محاكاة الهاء لهذه اللحظة المعبرة عن الضعف والفتور، ومن ألفاظ الضعف التي تحملها الهاء: الهباء، الهدوء، الهرم، الهزيل، الهشاشة، الهين ... إلخ. وإذا تأملنا بيت المتنبي الآتي نجد المطابقة تامة بين صوت الهاء المتكرر أربع مرات في الشطر الثاني وبين ما يعبر به الشاعر عن حالة نفسية عابرة:

قالت وقد رأت اصفراري من به *** وتنهّدتْ فأجبتها المتنهّـدُ[14]

2: دلالات حروف اللسان:

اللسان أكبر وعاء يحتوي على حروف المعجم، فالحروف اللسانية العربية ثمانية عشر موزعة على مخارج تفصيلية، بداية من أقصى اللسان قريبا من اللهاة وصولا إلى طرفه، فأما صوت القاف فمخرجه من أقصى اللسان قريبا من الحلق،[15] والقاف من حروف القوة، والمقاربات الدلالية التي تعطيها القاف على نوعين؛ إذا كانت في بداية الكلمة تدل على القوة والصلابة، مثل: القوة، القهر، القمع، القسوة، القدرة، القضّ، القلع، القطع ... إلخ، أما إذا كانت في آخر الكلمة فإنها تدل على الضيق والانكماش، ومن الشواهد على ذلك: الضيق، رقيق، الانغلاق، الانطباق، الالتصاق، الانخناق ... إلخ، وفي هذه الآية تصور القاف هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾[16]، والإملاق هو شدة الفقر والفاقة، وفي قوله تعالى أيضا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[17] صورت القاف الساكنة معنى الضيق في يقدر، ومن صفات حرف القاف القلقلة كما يذكر علماء اللغة والتجويد، والقلقلة هي اضطراب الحرف عند خروجه كما هو مسموع في تلاوات القرآن الكريم، وقد يستعين المتكلم أو الشاعر بتصور اضطرابه النفسي باختيار أحد حروف القلقلة، فتكون المحاكاة تامة بين اضطراب الصوت واضطراب الحالة الشعورية والنفسية للشاعر، تأمّلْ معي هذا البيت للشاعر أبي الطيب المتنبي:

أرقٌ على أرقٍ ومثلي يأرقُ *** وجوىً يزيدُ ودمعةٌ تترقرقُ[18]

تكررت القاف خمس مرات، فكانت الأنسب لتصوير الحالة المتوترة التي يشعر بها الشاعر، وتصوير الحالة المتطابقة بين اضطراب الصوت واضطراب نفسية الشاعر.

أما الحروف الشجرية التي تخرج من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، وهي الشين والجيم والياء[19] فيمكن أن تعطينا مقاربات دلالية حسب صفاتها اللازمة الموضوعة لها، فصوت الشين اتفق علماء الأصوات

والتجويد على أن من صفاته التفشي،[20] والتفشي هو انتشار الهواء والريح داخل الفم، ومن شواهد المحاكاة المباشرة التي يحدثها صوت الشين قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾[21]، فالشين الساكنة المتفشية في كلمة (يشوي) تطابقُ صوتَ الشواء تطابقا تاما؛ بمعنى أن صوت الشواء هو شين ساكنة متفشية، ولذلك نجد معاني الشواء والاحتراق تصورها الشين في كثير من الكلمات، مثل: شاط، الشظية ... إلخ، ومن معاني صوت الشين أيضا كما هو موجود في صفته معاني الانتشار والتفشي، مثل هذه الألفاظ: انتشار، تفشي، انشعاب، تشعشب، وشائج، اشتباك، شيوع، شمول، استشرى ... إلخ، ومن معاني الانتشار قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ • وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾[22]، فقد صوَّر صوت الشين ذلك الانتشار وكثرة الفراش والصوف المنتشرين.

أما الجيم فمخرجها من وسط اللسان مع الشين، لكن تختلف معها في بعض الصفات، فالجيم صوت شديد مجهور،[23] ويصفه علماء التجويد بالتعطيش، والتعطيش مصطلح يقصد به الشدة وعدم الرخاوة؛ لأن رخاوة الجيم صوت يشبه الشين كما نسمعه في لهجات الشام، وتسمى بالجيم التي تشبه الشين، وهو لحن وأداء غير مقبول في قراءة القرآن الكريم، والجيم المعطّشة الانفجارية مناسبة لحمل معاني الشدة واليبس، مثل هذه الألفاظ: الجدب، الجفاف، الجرداء، الجعودة، الجلد، الجمود، الجلمود، الوجْد، الجوى ... إلخ، وفي هذا البيت لأبي فراس الحمداني تصوّر الجيم المكررة معاني القحط النفسي الذي يعيشه الشاعر:

أنا في حالتيْ وصالٍ وهجرٍ *** من جوى الحب في عذاب مذيب[24]

أما حرف الضاد العربية فمخرجها متفق عليه عند علماء اللغة والتجويد، فالضاد العربية الفصيحة تخرج من حافة اللسان مع ما يحاذيها من الأضراس العليا،[25] ومناسبة مطابقة المخرج للمعنى في هذا الحرف واضحة جلية؛ فالمعاني التي تتعلق بالأضراس أو عملها تحتوي على هذا الحرف الضرسي، تمعّن في هذه الكلمات: الضرس، العضّ، الهضم، القضم، الخضم، والضحك الذي تظهر معه الأضراس ... إلخ، هذه الأسماء والأفعال من فعل الأضراس، فهذا دليل قاطع على أن العلاقة بين الدال والمدلول في اللغة العربية مبنية على التناسق والمطابقة، ففي قول النبي ﷺ: " ... تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ " صورت الضاد الضرسية المكررة تطابق فكي الأضراس.

أما الحروف التي تخرج من طرف اللسان فكثيرة، وأذكر منها على سبيل التمثيل حرف الثاء، ومخرجه من طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا،[26] وهو صوت رخو مهموس يتدفق معه النفَس بنسبة كثيرة، ولذلك نسب إليه علماء اللغة صفة التفشي كالشين، ومن المعاني التي يوحي بها صوت الثاء الكثرة والكثافة، تأمل في هذه الألفاظ: الكثير، الكثيف، الكثافة، الكث، التكاثر، الثرثرة، الغثاء، الثراء، الغثاء، الضغث، البث ... إلخ، تأمل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[27]، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً • وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً﴾[28]، فالآية الأولى تعاضدت الثاء مع الشين لتصور معاني الكثرة والانتشار، والآية الثانية صورت الثاء المكررة كثرة الزرابي المبثوثة في الجنة، والآية الثالثة صورت الثاء المكررة أربع مرات معاني الكثرة في معنى الآية الكريمة.

وصوت الراء كذلك من الأصوات التي تحمل دلالات مقاربة لصفته؛ فصوت الراء متفق عليه بأنّ من صفاته التي ليس لها ضدٌّ صفةَ التكرار أو التكرير،[29] وتكرار الراء يكون بارتعاد اللسان في مخرجه، وهي من الصفات التي

تُجتَنب حتى لا تُنطق راءات كثيرة، والتكرار نوع من الكثرة وإعادة الفعل عدة مرات، فهي مناسبة لتصوير هذه المعاني، خاصة في الأسماء والأفعال الرباعية، مثل: كركر، دحرج، سرمد، عرمرم، ثرثرة، غرغرة، جرجر ... إلخ، تأمل هذه الآية الكريمة، ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالقَصْرِ﴾[30]، استطاعت الراء المكررة أن توحي بدلالة الكثرة مع الانتشار الذي توحي به الشين كما ذكرنا، ومن معاني التكرار الذي توحي به الراء المتكررة قول الشاعر امرئ القيس:

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا *** كجلمود صخر حطه السيل من عل[31]

تكرر صوت الراء في الشطر الأول خمس مرات إيحاء بمعاني الكثرة وإعادة الفعل والحركة مرة بعد مرة، وفي لهجاتنا العامية اليوم نستعين بحرف الراء لإبراز معاني التكرار وإعادة الفعل، فمثلا كلمة (ثرثار) باللغة الفصيحة تقابل بالعامية لفظتي (كعرار وخرنان) وكلاهما يحمل المعنى نفسه.

أما الحروف النطعية الثلاثة وهي: الدال والتاء والطاء فمخرجها من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا،[32] وقد اشتركت هذه الأصوات الثلاثة في صفة الشدة، والشدة انحباس الصوت، فكانت مناسبة لمعاني الشدة والانقطاع والامتناع؛ والألفاظ التي تحمل هذه المعاني عديدة، ومن أمثلتها: الشِّدّة، القطع، الكبت، البتر، الكدّ، البتّ، الجهد، الكدح، العنت، القحط ... إلخ، فمثلا قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً﴾،[33] تصوّر الدال بشدتها معنى العناء والتعب والنصب الذي يبذله الإنسان لملاقاة ربه، كذلك قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾،[34] تومئ الدال الشديدة بمعنى الشدّة في كلمة: (كبد)، والكبد هو النصب والمشقة.

3: دلالات حروف الشفتين:

الحروف التي تخرج من الشفتين أربعة: الباء والميم والفاء والواو،[35] وتختلف هذه الحروف باختلاف صفاتها، وحرف الفاء أضعف حرف في اللغة العربية؛ لأنه لا يحتوي على صفة من صفات القوة، وهو حرف مهموس يتدفق معه الهواء، ولذلك نسب إليه بعض علماء اللغة صفة التفشي، ومن المحاكاة التامة التي يصورها صوت الفاء لفظة (التأفّف)، في هذه الكلمة ثلاث فاءات تحاكي الصوت الذي يصدره المتأفّف، وهذه المطابقة المباشرة بين الدال والمدلول تمثلتْ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾،[36] فالسامع يعي معنى الكلمة من خلال أصواتها المحاكية لها، ولهذه الآية جمال أسلوبي، مفاده أن الله يمنع إظهار أضعف حرف في حضرة الوالدين تعظيما لحرمتهما، فما بالنا بأكثر من ذلك، إذن فصوت الفاء مناسب بضعفه لمعاني الضعف، وهو متجلّ في مثل هذه الألفاظ: الضعف، الفتور، التأفف، النحافة، فارغ، ومن المصادفات أن اللغة الفرنسية أيضا استعانت بحرف الفاء التي توحي بمعاني الضعف، تأمل هذين الكلمتين: (ضعيف=faible)، (فتور= fatigue)، ومن المعاني التي توحيها الفاء مشابهة بصفتها تدفق الهواء، مثل الحفيف، الفرن، المدفأة، فكلمة (الدفء) تصور الفاء الساكنة وهج المدفأة المتدفق.

أما الباء فهي صوت شديد مجهور انفجاري، ومن صفاته القلقلة، فهو مناسب لتصوير معاني الشدة واليبس، مثل هذه الكلمات: التعب، النصب، الغضب، العصب، البتر، البت ... إلخ، ففي قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[37] أوحت الباء المكررة أربع مرات معاني الشدة والقطع وما ينسجم مع هذا الحقل الدلالي.

ثانيا: دلالة الأصوات المركبة:

ومن المقاربات الجمالية التي يتيحها النظام الصوتي خلق أسلوب صوتي منسجم مع المعاني التي تتقرر في النص، وهي ميزة جمالية اعتنى بها اللغويون في الأسلوبية الصوتية، فأصوات اللغة العربية تعاضد فيما بينها لترسم الصورة الدلالية التي تنبع من أعماق الشاعر والمتكلم، وربما يبرز هذا في الشعر عند الحديث عن حرف الروي الذي تسمى به القصيدة لتكراره ولتتابعه، ولأنه السكتة التي يقف فيها الشاعر وينفث فيها فواصله الدلالية:

1: تجاور الأصوات المفردة:

من المقاربات الدلالية في الأصوات المركبة ترادف الأصوات المفردة بمحاكاتها ومجاوراتها لبعضها في المقطع الواحد، لتخلق بذلك صورا عديدة في ذهن السامع، تأمل معي هذه الآيات الكريمات: ﴿كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ • كَغَلْيِ الْحَمِيمِ • خُذُوهُ فَاعْتُلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ • ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾[38]، في هذه الآية مجموعة من الأصوات المفردة المحاكية لمعان مقررة كما ذكرنا سابقا، وفي تجاورها وتلاحمها خلقت في ذهن السامع صورا دلالية واضحة؛ فالغين المكررة مرتين قد حاكت صوت الغليان في لفظتي: (تغلي وغلي) خاصة الساكنة، والعين الساكنة صورت معنى العنف والشدة في لفظة: (فاعتلوه)، وهي لفظة تفضي إلى الرعب والفزع، والحاء المكررة ثلاث مرات توحي إلى الحرارة والاحتراق كما مر بنا سابقا، فهذا الشتات من الإيحاءات المتنافرة قد شد هذا البناء الصوتي عضده ليرسم في ذهن السامع والمتأمل ذلك المقطع الحركي الذي تصوره هذه الآيات الكريمات.

2: تجاور الأصوات المفخمة والشديدة:

ومن التجانس الجمالي في اللغة العربية أن الأصوات بإمكانها أن تنشئ حقلا دلاليا متقاربا بفضل بنائها الصوتي؛ فتتجاور الأصوات المفخمة لترسم صورة دلالية ضخمة أو عظيمة، وتتجاور الأصوات المرققة لترسم معنى لطيفا في ذهن المتلقي، ومن أمثلة تجاور الأصوات المفخمة لفظة: (ضخم)، فالضاد والخاء حرفان مفخمان ومستعليان، وتجاورهما كان مناسبا لدلالة (ضخم)، ومن الأمثلة أيضا لفظتا: (الضرغام والضيغم) تجاورت الضاد والغين والراء لتؤدي معنى عظيما، وهو الأسد الشجاع، هذا من باب المجاورة في لفظة واحدة، وقد تتجاور الأصوات المفخمة في مقطع لغوي لترسم دلالة منسجمة مع دلالة أصواتها، تأمل معي هذا البيت للبحتري:

لحقتْ خطاه الخالعين وأثقبت *** عزماته في الصخرة الصيخود[39]

فتتابع الأصوات المفخمة في هذا السياق لم يأت عبثا، فالشطر الأول تكررت القاف مرتين، والخاء مثلها، والطاء مرة واحدة، بمجموع خمسة أصوات مفخمة، والشطر الثاني تجلى المعنى المحاكي في اللفظتين الأخيرتين (الصخرة الصيخود)؛ بحيث تكررت الصاد مرتين، والخاء مثلها، والراء مرة واحدة، والدال حرف شديد أيضا، فأغلب أصوات البيت مفخمة جاءت حاملة في طياتها معنى ضخما مناسبا على مقاس الأصوات.

3: تجاور الأصوات المرققة والرخوة:

أصوات العربية مرققة أغلبها، فالحروف المفخمة دائما سبعة، وحرفان يفخمان ويرققان حسب القاعدة، وباقي حروف الهجاء مرققة بصورة ثابتة؛[40] فثلثا حروف المعجم مرققة حيثما وقعت، ولا تخضع لقاعدة تؤدي إلى

تفخيمها، فمن المسلّمات أن تصادفنا في كلامنا الألفاظُ المرققةُ حروفُها أكثر من المفخمة، مثل هذه الكلمات المعبرة عن معانيها بصفات حروفها: سهل، ليّن، عذب، لكن الذي يمنح الكلمات معاني القوة من الضعف هو النظر إلى الصفات اعتدادا بجهرها وهمسها أو بشدتها ورخاوتها لا بتفخيمها وترقيقها؛ فالألفاظ الرقيقة واللينة تعتمد على تجاور الأصوات المهموسة والرخوة للمقاربة الدلالية التي تتيحها، تأمل هذه الكلمات: حفيف، رفيف، لميس، خفيف، حسيس، همس ... إلخ، وإذا تمعنا في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾[41] نجد أن مجاورة الحروف المهموسة وتعاقبها في هذا النص القرآني ألمح لنا بتلك الصورة الساكنة الخاشعة المتمثلة في هذه الوقفة الموعودة في يوم القيامة، فالتاء المكررة ثلاث مرات مع السين المكررة مرتين مع الشين والهاء صنعت مشهدا يحتويه السكوت والسكون وعدم الصخب، وهذه الحروف كلها مهموسة.

خاتمة:

بعد هذه الدراسة العلمية للأصوات بإمكاننا سرد النتائج التالية في نقاط مقتضبة فأقول:

-/ الإيحاء الصوتي الدلالي في اللغة العربية يمكن تقسيمه إلى أصناف؛ محاكاة الصوت للدلالة بالتطابق المباشر بين الصوت والمعنى، مثل أصوات الطبيعة والحيوانات، أو تجلي المعنى في بعض الأصوات تجليا تاما، مثل محاكاة الشين الساكنة لصوت الشواء، والغين الساكنة لصوت الغريق والغليان، والخاء الساكنة لصوت المخنوق، والفاء الساكنة للتأفف، أو عن طريق التجانس والتآلف بين صفات الحروف والمعنى العام للنص.

-/ طرق باب المحاكاة بين الدال والمدلول في اللغة العربية لا يخضع لقاعدة ثابتة، ولا ينسب إلى مصطلح علمي مستقل قائم بذاته، بل هو مقاربات جمالية تحسسية أساسها التذوق، ولذلك تختلف الرؤية العامة لهذا المجال تبعا لاختلاف الأذواق.

-/ لا يمكن إنكار ظاهرة إثبات العلاقة بين الدال والمدلول إنكارا مطلقا، فعدم تعميم الظاهرة على كل الحالات لا يعني عدم وجودها، فقد يكون ذلك ناتجا عن قصور استيعاب أو قلة إدراك، لأن حجج الإثبات قوية لا يمكن تجاهلها، وما لا يدرك كله لا يترك جله.

-/ الأحكام اللغوية على اللغات الأخرى لا يمكن تعميمها وفرضها على خصائص اللغة العربية، فهناك اختلاف جذري بينهما، فاللغة العربية بأصواتها ومخارجها وصفاتها وسعة معانيها لغة إعجازية خالدة حية تعتمد على التذوق والاشتقاق، بخلاف اللغات الأخرى الجامدة التي تعتمد على الذاكرة.

-/ يمكن أن يستفاد من دراسة المحاكاة بين الأصوات والدلالة في ميدان التفسير القرآني، خاصة في اختلاف التركيب الصوتي في بعض القراءات القرآنية، المتواترة أو الشاذة، فهذا الاختلاف الصوتي يثري المعجم الدلالي القرآني.

هوامش وإحالات المقال

[1]- ابن جني عثمان أبو الفتح، الخصائص، ج: 02، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، د ت، ص: 157.

[2]- ينظر: صالح الفاخري، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، د ط، د ت، ص: (50 -← 60).

[3]- محمد صالح الضالع، الأسلوبية الصوتية، دار غريب، د ط، 2008، ص: 31.

[4]- عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ط 01، دار القدس العربي، وهران – الجزائر، 2009، ص: (155 – 156).

[5]- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ط 02، مكتبة الأنجلو المصرية، 1952، ص: 20.

[6]- عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، نهضة مصر، د ط، القاهرة، 1995، ص: 08.

[7] ينظر: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، د ط، نهضة مصر، مصر، د ت، ص: 74.

[8] ينظر: سيبويه، الكتاب، ج 04، تح: عبد السلام محمد هارون، ط 02، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1982، ص: 433.

[9]- سورة الحشر، الآية: 02.

[10] سورة المؤمنون، الآية: 105.

[11] ينظر: ابن الجزري، التمهيد في علم التجويد، تح: علي حسين البواب، ط 01، مكتبة المعارف، الرياض، 1985، ص: 106.

[12] سورة النساء، الآية: 104.

[13] ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج 01، تح: حسن هنداوي، ط 02، دار القلم، دمشق، 1993، ص: 64.

[14] أبو الطيب المتنبي، الديوان، ج 01، شرح: أبو البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت لبنان، د ط، د ت، ص: 328.

[15] ينظر: سليمان فياض، استخدامات الحروف العربية، د ط، دار المريخ، الرياض، د ت، ص: 96.

[16] سورة الأنعام، الآية: 151.

[17] سورة الإسراء، الآية: 30.

[18] أبو الطيب المتنبي، الديوان، ج 02، ص: 154.

[19] ينظر: محمود خليل الحصري، أحكام قراءة القرآن الكريم، تح: محمد طلحة بلال منيار، د ط، دار البشائر الإسلامية، د ت، ص: 59.

[20] ينظر: ابن الجزري، التمهيد في علم التجويد، ص: 96.

[21] سورة الكهف، الآية: 29.

[22] سورة القارعة، الآية: (04 – 05).

[23] ينظر: ابن الجزري، التمهيد في علم التجويد، ص: 115.

[24] أبو فراس الحمداني، الديوان، المطبعة الأدبية، بيروت، د ط، 1910، ص: 113.

[25] ينظر: سيبويه، الكتاب، ج 04، ص: 433.

[26] المرجع نفسه، ص ن.

[27] سورة الغاشية، الآية: 16.

[28] سورة الواقعة، الآية: (06 – 07).

[29] محمد علي عبد الكريم الرديني، فصول في علم اللغة العام، د ط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص: 161.

[30] سورة المرسلات، الآية: 32.

[31] امرؤ القيس، الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 05، دار المعارف، بيروت، د ت، ص: 19.

[32] سيبويه، الكتاب، ج 04، ص: 433.

[33] سورة الانشقاق، الآية: 06.

[34] سورة البلد، الآية: 04.

[35] ينظر: أحمد رزقة، أسرار الحروف، ط 01، دار الحصاد، دمشق، 1993، ص: 46.

[36] سورة الإسراء، الآية: 23.

[37] سورة المسد، الآية: 01.

[38] سورة الدخان، الآية: (42 – 45).

[39] البحتري، الديوان، ج 01، مطبعة هندية، ط01، مصر، 1911، ص: 126.

[40] ينظر: ابن الجزري، التمهيد في علم التجويد، ص: 93.

[41] سورة طه، الآية: 108.

قائمة المصادروالمراجع:

القرآن الكريم.

1/ إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، د ط، نهضة مصر، مصر، د ت

2/ إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ط 02، مكتبة الأنجلو المصرية، 1952.

3/ أحمد رزقة، أسرار الحروف، ط 01، دار الحصاد، دمشق، 1993.

4/ امرؤ القيس، الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 05، دار المعارف، بيروت، د ت.

5/ البحتري، الديوان، ج 01، مطبعة هندية، ط01، مصر، 1911.

6/ ابن الجزري، التمهيد في علم التجويد، تح: علي حسين البواب، ط 01، مكتبة المعارف، الرياض، 1985.

7/ ابن جني عثمان أبو الفتح، الخصائص، ج: 02، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، د ت.

8/ ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج 01، تح: حسن هنداوي، ط 02، دار القلم، دمشق، 1993.

9/ سليمان فياض، استخدامات الحروف العربية، د ط، دار المريخ، الرياض، د ت.

10/ سيبويه، الكتاب، ج 04، تح: عبد السلام محمد هارون، ط 02، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1982.

11/ صالح الفاخري، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، د ط، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، د ت.

12/ أبو الطيب المتنبي، الديوان، ج 01، شرح: أبو البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت لبنان، د ط، د ت.

13/ عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، نهضة مصر، د ط، القاهرة، 1995.

14/ عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ط 01، دار القدس العربي، وهران – الجزائر، 2009.

15/ فراس الحمداني، الديوان، د ط، المطبعة الأدبية، بيروت ، 1910.

16/ محمد صالح الضالع، الأسلوبية الصوتية، د ط، دار غريب، 2008.

17/ محمد علي عبد الكريم الرديني، فصول في علم اللغة العام، د ط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009.

18/ محمود خليل الحصري، أحكام قراءة القرآن الكريم، تح: محمد طلحة بلال منيار، د ط، دار البشائر الإسلامية، دت.